الشعرية والممارسة النقدية الغربية الحديثة

Poetics and modern western critical practice
Poétique et pratique critique occidentale moderne

مسكين حسنية[1]*

تاريخ الإرسال: 2021/06/01 **تاريخ القبول:** 2021/09/17 **تاريخ النشر:** 2022/06/01

ملخص:

ترجع محاولة تأسيس الشعرية الغربية الحديثة إلى التطور الذي عرفه النقد الغربي في القرن العشرين من خلال نصوص الشكلانيين الروس، وفيما شهده النقد الأنجلوساكسوني الجديد بأمريكا وانجلترا، وفي التحليل البنيوي الذي شرع منذ الستينيات في التطور بفرنسا.

ونظرا لأهمية الشعرية في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة، فقد حاولنا في هذا المقال تتبع معالمها عند أعلام الدرس النقدي الغربي الحديث وفق منهج وصفي تحليلي، لنخلص في النهاية إلى أن الشعرية شهدت اهتماما وتطورا إلى أن صارت توصف نظريا بأنها تلك المقاربة الباطنية والمجردة التي تبحث عن الخصائص التي تحكم الخطاب الأدبي وتجعله متميزا عن باقي أنواع الخطابات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الشعرية؛ الممارسة؛ النقدية؛ الغربية.

Abstract :

The attempt to establish a modern Western poetics goes back to the development of Western criticism in the twentieth century through the texts of the Russian formalists, and in what was known in the new Anglo-Saxon criticism in America and England, and in the structural analysis that, since the sixties, it began to develop in France.

Based on the importance of poetry in Literary Studies - Modern and Contemporary, we tried through this article to trace its caracteristics among the pioneer of western critical and modern course according to the analytical and descriptive approach, we conclude that poetry knew an importance and development until it theoretically became an esoteric and abstract approach that interest in the characteristics that make the Literary discourse different from the other types.

Keywords: poetry; practice; criticism; occidental.

Résumé :

La tentative d'établir une poésie occidentale moderne remonte au développement de la critique occidentale au vingtième siècle à travers les textes des formalistes russes, ainsi ce qu'a connu la critique anglo-saxonne en Amérique et en Angleterre, et dans l'analyse structurelle qui a commencé à se développer en France depuis les années 60.

En se basant sur l'importance de la poésie dans les études littéraires et critiques, modernes et contemporaines, nous avons tenté dans cet article, de retracer ses caractéristiques chez les pionniers du cours sur la critique occidentale moderne selon une approche descriptive et analytique. On a conclu enfin, que la poésie a connu un développement et une importance jusqu'à ce qu'elle est

*حسنية مسكين

[1]Meskine hasnia, University of Mostaganem,: Algeria, e-mail, hasniameskine@gmail.com

théoriquement devenu une approche approfondie et abstraite, qui a pour objet d'étude les caractéristiques qui régissent le discours littéraire et le rendre different des autres types du discours.
Mots clés : la poésie; la pratique; la critique; occidentale.

مقدمّة

لقد شهدت الشّعريّة تطوّرا في الدّرس النّقديّ الغربيّ الحديث إلى أن صارت توصف نظريّا بالبحث عن القوانين التي تحكم الخطاب الأدبيّ والتي تجعله متميّزا عن باقي أنواع الخطابات الأخرى، فقد كان هدف الشعريّة منذ البداية التّأسيس لعلم الأدب ودراسته دراسة علميّة بوصفه فنّا لفظيًّا، من هذا المنطلق تبنّت هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التّحليليّ للإجابة عن الإشكاليّة الآتية: كيف تجلّت معالم الشعريّة في الفكر النّقديّ الغربيّ الحديث؟

وقد اقتضت الإجابة عن هذه الإشكاليّة تتبّع مسار تطوّر مفهوم الشّعريّة عند كلّ من "رومان جاكبسون"، "تزفيطان تودوروف"، "جون كوهين"، باعتبارهم روّادا للممارسة النّقديّة الغربيّة الحديثة، من خلال الجزئيّات الآتية:

- في مفهوم الشّعريّة.
- رومان جاكبسون والشّعريّة الشّكلانيّة.
- تزفيطان تودوروف والشّعريّة البنيويةّ.
- جون كوهين وشعريّة الانزياح.

1- في مفهوم الشّعريّة

للشّعريّة تعريفات كثيرة ومختلفة تتباين من ناقد لآخر ومن ثقافة لأخرى، وحتى من زمن لآخر، ومع ذلك تتّفق كلّها تقريبا في فكرة أساسيّة وجوهريّة، وهي البحث عن قوانين الخطاب الأدبيّ، وهذا هو المفهوم العام والمستكشف منذ أرسطو إلى يومنا هذا (ناظم، 1994، صفحة 5).

ولكن لا يمكن الاكتفاء بهذا المفهوم، ذلك أنّ عبارة «الشّعريّة هي قوانين الخطاب الأدبيّ تنطوي على اختزال مخلّ يخفي قضايا مهمّة لا بدّ من أن تطرح للبحث، والتّوسّع في معنى العبارة السّابقة يحيلنا على النّظريّات المختلفة التي صبّت في الإطار نفسه الذي حدّد مفهوم الشّعريّة في الخطاب الأدبيّ» (ناظم، 1994، صفحة 6).

فقد جرى وصف نظريّات الشّعريّة الحديثة بأنّها نظريّات موضوعيّة بإطلاق، وهذا الوصف متأتٍّ من كونها تنظر إلى النّص فقط، في عمليّة استنباط القوانين، والحقيقة أنّ هذا الوصف صحيح ما دام النّص هو الوحيد الذي يوفّر المادّة القابلة للتّحليل، ومع ذلك يبدو أنّ موضوعيّة نظريّات الشّعريّة غير مطلقة تماما، فثمّة مستويان لمعالجة هذه القضيّة.

في المستوى الأوّل يمكن أن نحكم على الشّعريّة بالموضوعيّة مادامت معتمدة فقط على النّص الأدبيّ، أمّا المستوى الثّانيّ فإنّه يبرز الجانب الذّاتيّ في صلب كلّ نظريّة شعريّة، ويتأسّس هذا المستوى على اختلاف نظريّات الشّعريّة على الرّغم من وحدة النّصوص وثبات مكوّناتها، والتّصوّر المنطقيّ يقتضي تطابق المفاهيم بإزاء النّص الواحد، أي أنّ النّص الأدبيّ إذا كان منطويا على ثبات مطلق على صعيد المكوّنات الأوليّة، فهذا لا محال سيجعله يفرز مفهوما واحدا أو قوانين ثابتة، ولكن كمّ المفاهيم الكليّة المستنبطة من مادّة واحدة يضعنا بإزاء فاعليّة ذاتيّة كامنة في كلّ شعريّة، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى تفاوت الفروق الفرديّة عند المنظّرين النّقديين (ناظم، 1994، صفحة 7).

وهذا ما يفسر تنوّع مفاهيم الشّعريّة واختلافها، وهنا يمكن أن نتساءل: هل استطاعت الشّعريّات الحديثة بمختلف مفاهيمها النّظريّة أن تفسر الوسائل الشّعريّة كلّها ومن دون استثناء؟

يرى "حسن ناظم" أنّ الإجابة بنعم عن هذا السّؤال «مطمح كبير لم تستطع الشّعريّات بلوغه بعد، فهي بوصفها قوانين ثابتة لم تستطع أن تفسّر كلّ التّغيّرات التي تطرأ على النّصوص الأدبيّة، على مستوى الوسائل المتّبعة والمكتشفة لخلق شعريّتها، وقد اعتمدت الشّعريّات المطروحة في نطاق هذا البحث على المجازات اللّغويّة بصورة عامّة للكشف عن قوانين الإبداع في النّصوص الأدبيّة» (ناظم، 1994، صفحة 10)، وهذا ما جعل النّظريّات الشّعريّة الحديثة تقف عاجزة عن تحليل نصوص أدبيّة لا تحتوي على مجازات لغوية؟ ولذلك فإنّ البحث في موضوع الشّعريّة سيبقى دائما مجالا خصبا لتصوّرات ونظريّات مختلفة.

2- رومان جاكبسون والشّعريّة الشّكلانيّة

يرجع الفضل في تأسيس الشّعريّة الحديثة إلى مدرسة الشّكلانيّين الرّوس، تلك المدرسة التي تشكّلت بين حلقة موسكو اللّسانيّة وجمعيّة دراسة اللّغة الشّعريّة وحلقة براغ اللّسانيّة، ويرجع أثر الشّكلانيّين في الدّرس النّقديّ إلى محاولتهم تقديم مشروع لمعالجة الظّاهرة الأدبيّة بطريقة علميّة ودراستها بعيدا عن أيّ ظرف خارجيّ وفقا لمبدأ المحايثة في دراسة النّصوص الأدبيّة.

ويعدّ "رومان جاكبسون" –Roman Jakobson – من أهمّ روّاد مدرسة الشّكلانيّين الرّوس الذين اهتمّوا بنظريّة الأدب تنظيرا وتطبيقا، ومن أهمّ رواد التّحليل البنيويّ في ميادين: اللّغة والشّعر والفنّ، وقد عرفت مسيرته العلميّة ثلاث مراحل أساسيّة هي: مرحلة حلقة موسكو اللّسانية (1915– 1920م) التي اندمجت في الأبوياز، ومرحلة حلقة براغ بتشيكوسلوفاكيا (1920– 1930م)، ومرحلة التّدريس بالولايات المتّحدة الأمريكيّة في جامعتي هارفارد ومعهد ماساتشوستس، وفي هذه الفترة انشغل باللّسانيّات العامة، وتدريس اللّغات والآداب السّلافيّة.

وقد اكتسبت الشّعريّة فعاليّتها الإجرائيّة باعتبارها علمًا قادرًا على وصف وتحليل النّصوص الأدبيّة بفضل علاقتها باللّسانيات، ذلك أنّه إذا كانت اللّسانيّات علمًا محايثا للّغة عامّة فإنّ الشّعريّة علم محايث للغة الأدب، وعلى هذا الأساس فقد عدّ "رومان جاكبسون" الشّعريّة فرعا من فروع اللّسانيّات، يقول: « إنّ الشعرية تهتمّ بقضيّة البنيّة اللّسانيّة، تماما مثل ما يهتمّ الرّسم بالبنيات الرّسميّة، وبما أنّ اللّسانيّات هي العلم الشّامل للبنيات اللّسانيّة، فإنّه يمكن اعتبار الشّعريّة جزءا لا يتجزّأ من اللّسانيّات» (جاكبسون، 1988، صفحة 24).

وقد وجد علم الأدب وجهته الصّحيحة في عبارة "جاكبسون" الشّهيرة عام 1919: «إنّ موضوع العلم الأدبيّ ليس هو الأدب وإنّما الأدبيّة، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيّا» (تودوروف و آخرون، 1982، صفحة 35)، وبعبارة أوضح يؤكّد هذه الفكرة بقوله: «إنّ موضوع الشّعريّة هو قبل كلّ شيء الإجابة عن السّؤال التّاليّ: ما الذي يجعل من رسالة لفظيّة أثرا فنّيا» (جاكبسون، 1988، صفحة 24)، وبهذا يكون البحث منصبّا على أدبيّة الأدب، بوصفه لغة من دون التّأمل في التّجليّات الفلسفيّة والنّفسيّة والجماليّة والأيديولوجيّة المنبثقة عنه.

ومن أبلغ المفاهيم التي تقع في مركز اهتمام الشّعريّة الشّكلانيّة مفهوم الوظيفة الشّعريّة، وقد لعب "جاكبسون" دورا أساسيّا في تطوير هذا المفهوم، حيث ربطه بمفهوم الشّعريّة بعد أن قام بدراسة تحليليّة لمقومات الرّسالة الشّعريّة ووظائفها السّت، حيث عرضها على النّحو التّاليّ:

إنّ المرسل يوجّه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون رسالة فعّالة فإنّها تقتضي سياقا تحيل عليه يدعى المرجع، وتقتضي الرّسالة اتّصالا أي قناة، وكلّ عامل من العوامل السّتة المكوّنة للحدث اللّسانيّ ينتج وظيفة لسانيّة هي: الوظيفة المرجعيّة، التّعبيريّة، الشّعريّة، الافهاميّة، التّنبيهيّة، والوظيفة الماوراء لغويّة (جاكبسون، 1988، الصفحات 27-28).

ومن باب التّوضيح، فإنّ نصّا ما قد تغلب عليه وظيفة معيّنة دون أخرى، فكلّ الوظائف التي حدّدناها سالفا متمازجة، إذ قد نعاينها مختلطة بنسب متفاوتة في رسالة واحدة، حيث تكون الوظيفة الواحدة منها غالبة على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال. ومن هنا، تهيمن الوظيفة الجماليّة الشّعريّة على الشّعر الغنائيّ، في حين تهيمن الوظيفة التّأثيريّة على الخطبة، وتهيمن الوظيفة الميتالغويّة على النّقد الأدبيّ، وتغلب الوظيفة المرجعيّة على النّصوص التّاريخيّة، وتهيمن الوظيفة الانفعاليّة على النّصوص الشّعريّة الرّومانسيّة، وتغلب الوظيفة الافهاميّة على المكالمات الهاتفيّة (تودوروف و آخرون، 1982، صفحة 81)، وهنا يتجلى منهج "جاكبسون" العلميّ في وصف ودراسة الأنواع والأجناس الأدبيّة، من خلال التّعامل مع الأثر الأدبيّ على أنّه مادّة وبناء وشكل وقيمة مهيمنة.

وتهتمّ الشّعريّة بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشّعريّة لا في الشّعر فحسب حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للّغة، وإنّما تهتمّ بها أيضا خارج الشّعر حيث تعطى الأولويّة لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشّعريّة»

(جاكبسون، 1988، صفحة 35)، واستهداف الرّسالة بوصفها رسالة والتّركيز عليها لحسابها الخاصّ، هو ما يشكّل الوظيفة الشّعريّة للّغة (جاكبسون، 1988، صفحة 31)، مؤكّدا بأنّ كلّ رسالة أدبيّة مهما كانت تتضمّن الوظيفة الشّعريّة، إلاّ أنّ حضورها يتفاوت من نصّ لآخر.

وانطلاقا من الوظيفة الشّعريّة التي أسّسها "جاكبسون" ركّز الشّكلانيّون الرّوس على البحث عمّا في الأثر الأدبيّ من خاصيّة أدبيّة، أو كما يسمّونها الأدبيّة، وبذلك وسّعوا مفهوم الشّعريّة ليشمل كامل الأدب شعرا ونثرا، وكلّ الأجناس والأنواع، خلافا لشعريّة أرسطو التي كانت مركّزة على جزء منه فقط.

واهتمام "جاكبسون" بالوظيفة الشّعريّة جرّه إلى ضرورة البحث عن المعيار اللّسانيّ الذي يمكّنه من معرفة هذه الوظيفة، حيث عمل على تهيئة الأدوات اللاّزمة لكلّ فعل لفظيّ، وفي هذا السّياق أشار إلى نمطين أساسيّين للتّرتيب هما الاختيار والتّأليف، ينتج الاختيار على أساس قاعدة التّماثل والمشابهة والمغايرة والتّرادف والطّباق، بينما يعتمد التّأليف على المجاورة، وتسقط الوظيفة الشّعريّة مبدأ التّماثل لمحور الاختيار على محور التّأليف (جاكبسون، 1988، صفحة 32)، وتبعا لهذا التّقاطع الحاصل بين الشّعريّة واللّسانيّات، شكّلت المفارقة بين اللّغة الشّعريّة واللّغة النّفعيّة منطلقا أساسيّا لتحديد تصوّرات الشّكلانيّين إزاء العديد من القضايا المتعلّقة بالإبداع الأدبيّ.

3- تزفيطان تودوروف والشّعريّة البنيويّة

إنّ التّطوّر الذي شهده الدّرس اللّسانيّ عبر حلقة براغ اللّغويّة كان له أثر كبير في تطوّر الشّعريةّ البنيويّة، هذه الأخيرة التي «أخذت على عاتقها الاكتفاء بالنّص الأدبيّ بوصفه تجسيدا لبنية هي بمثابة كلّ عضويّ مركب من علاقات قائمة بين مختلف الدّوال، حيث لا يمتلك الدّال قيمته إلاّ في ظلّ علاقته بالدّوال المجاورة له ضمن نفس النّظام اللّسانيّ» (كنوني، 2010، صفحة 49)، ولذلك فإنّ ما يحدّد مصطلح البنية هو توفّر شرط الوحدة العضويّة.

ويأتي "تزفطان تودورف" (Tezvitan Todorov) في طليعة المهتمّين بهذا النّوع من الدّراسة، ويتّضح ذلك من خلال نتاجه في النّقد التّنظيريّ والتّطبيقيّ، لأنّ دراسته لموضوع الشّعريّة كانت ناتجة عن مفهومه ومقاربته الإجرائيّة للخطاب الأدبيّ وفقا لمعطيات المنهج البنيويّ، يقول في ذلك: «نستطيع (...) تجميع قضايا التّحليل الأدبيّ في ثلاثة أقسام بحسب ارتباطها بالمظهر اللفظيّ من النّص أو التّركيبيّ أو الدّلاليّ» (تودوروف ت.، 1990، صفحة 22)، وهو بهذا النّحو، يقدّم أساسا منهجيّا للشّعريّة الأدبيّة يقوم على مفهوم البنية، ويتغذّى من العلاقة التي تربط بين الأدب واللّغة، انطلاقا من حقل اللّسانيّات، الذي وفّر المرجعيّة العلميّة لخطاب الشّعريّة.

ويرى "تودوروف" في القاموس الموسوعيّ لعلوم اللّغة الذي ألّفه مع "ديكور" (O.Ducrot)، أنّ تاريخ الشّعريّة في النّقد الغربيّ يرجع إلى كتاب (فنّ الشّعر) "لأرسطو" الذي اعتبره أوّل عمل منهجيّ في هذا المجال، وممّا ورد فيه عن مصطلح الشّعريّة أنّ له العديد من المعاني منها:(Todorov & Oswald, 1972, p. 108)

أوّلا: كلّ نظريّة داخليّة للأدب.

ثانيا: اختيار إمكانيّة من الإمكانيّات الأدبيّة، أي اتّخاذ المؤلّف طريقة كتابيّة ما.

ثالثا: تشير إلى كلّ التّرميزات المعياريّة الإجباريّة التي تتّخذها مدرسة أدبيّة ما.

والمعنى الأوّل هو الذي يهمّ "تودوروف"، إذ يرى أنّ الشّعريّة عليها أن تجيب أوّلا عن سؤال: ما هو الأدب؟ كما عليها أن تعرّف الخطاب الأدبيّ مقارنة مع أنواع الخطابات الأخرى، وتجيب ثانية عن سؤال: ما هي الوسائل الوصفيّة الكفيلة بتمييز مستويات المعنى وتحديد مكوّنات النّص الأدبيّ؟ (Todorov & Oswald, 1972, p. 9)

ويرى "تودوروف" أنّ «موضوع الشّعريّة ليس العمل الأدبيّ في حدّ ذاته، فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النّوعيّ الذي هو الخطاب الأدبيّ، وكل عمل عندئذ لا يعدّ إلاّ تجليّا لبنية محدودة وعامّة، وليس العمل إلاّ إنجازا من إنجازاتها الممكنة، ولذلك فإنّ هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقيّ بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجرّدة التي تصنع فرادة الحدث الأدبيّ، أي الأدبيّة» (تودوروف ت.، 1990، صفحة 23)، هذه الأدبيّة تتولّد ممّا يقع في نظام اللّغة من خلخلة واضطراب يصبح هو نفسه نظاما جديدا لما فيه من انزياحات تتحقّق بموجبها الشّعريّة والأدبيّة، وهنا يلتقي "تودوروف" مع "أرسطو" في أنّ الشّعريّة لا تولي اهتماما ولا شأنا للأدب الحقيقيّ، بل تسلّط الضّوء على الأدب الممكن أو المتوقع وبهذا نصل إلى الأدبيّة.

وتهدف الشّعريّة حسب "تودوروف" إلى جانب البحث عن مجمل اللّآلئ الجماليّة والمتمثّلة في الأدبيّة إلى تأسيس نظريّة ضمنيّة للأدب بعد تحليل أساليب النّصوص وكذا استنباط الشّفرات المعياريّة التي ينطلق منها الجنس الأدبيّ، ونشير هنا إلى أنّ مجال الشّعريّة لا يقتصر على ما هو موجود بل يتجاوز ذلك إلى إقامة تصوّر لما يمكن مجيئه، فالشّعريّة تتحقّق في الأعمال المحتملة أكثر ممّا تتأسّس في الأعمال الموجودة، وهذه دعوة من "تودوروف" إلى تأسيس ما يسمى بالأدب المحتمل، وهذه الرّؤية تفتح آفاقا جديدة للنّظر وتحثّ على البحث المعمّق في مستقبل المسيرة الأدبيّة، لذلك فقد دعا "تودوروف" إلى شحن الشّعريّة برؤية مستقبليّة تتنبّأ بالممكن والآتي (تاوريريت، 2010، صفحة 38).

4- جون كوهين وشعريّة الانزياح

يعرّف "جون كوهين" – Jean Cohen– الشّعرية بأنّها «علم الأسلوب الشّعريّ أو الأسلوبيّة» (كوهين، 1986، صفحة 15)، ويظهر من هذا التّعريف أنّ "كوهين" صبغ شعريته بنزعة علميّة حينما ربطها بعلم الأسلوب، ولكنّ طغيان هذه النّزعة العلميّة على الفضاء النظريّ لعالم الشّعريّة في تصوّر "كوهين" جعل الشّعريّة لديه تشغل عالما ضيّقا، هو عالم الشّعر بحديه الصّوتي والدّلالي فقط.

وتبعا لهذا الطّرح يأتي مفهوم "كوهين" لشعريّة القصيدة النّثريّة والشّعريّة على حدّ سواء، وضيق مجال الشّعريّة هذا يظهر من خلال قوله: «الشّعريّة هي العالم الذي يجعل من الشّعر موضوعا له» (كوهين، 1986، صفحة 9)، وبذلك فإن كانت اللّغة قابلة للتّحليل على مستويين اثنين: الصّوتيّ والدّلاليّ، فإنّ الشّعريّ يتعارض مع النّثريّ من خلال خصائص موجودة في هذين المستويين.

إنّ مسألة الفرق بين الشّعر والنّثر حسب "كوهين" ليست مسألة وزن أو إيقاع فقط، بل مسألة لغة أيضا، تتمثّل في نمط العلاقات التي يقيمها الشّعر بين الدّال والمدلول من جهة وبين المدلولات من جهة أخرى، فالشّعر انزياح وخرق لقانون اللّغة، وليس المقصود بالخرق هنا مجافاة قواعد النّحو والتّركيب، بل هو خرق يميّز لغة الشّعر بإبعادها عن التّقرير والمباشرة الغالبة على النّمط التّواصليّ في لغة الخطاب النثريّ والعلميّ.

ولهذا فقد حظيت اللّغة الشّعريّة عند "كوهين" بقدر كبير من العناية، لأنّ فيها يستثمر الحدّ الأقصى من الانزياح، على عكس لغة النّثر العلميّ التي يتراجع فيها الانزياح إلى درجة الصّفر أو يقترب، يقول: «يمكن أن نشخّص ظاهرة الأسلوب بخطّ مستقيم يمثّل طرفاه قطبين، القطب النّثريّ الخاليّ من الانزياح والقطب الشّعريّ الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة، وبين القطبين يتوزّع مختلف أنماط اللّغة المستعلمة فعليّا، فقرب القطب الأقصى تقع القصيدة، وقرب القطب الآخر تقع لغة العلماء، حيث لا يكون الانزياح منعدما وإنّما يدنو من الصّفر» (كوهين، 1986، صفحة 22).

ويرى "كوهين" أنّ الانزياح هو الذي يحدّد الواقعة الأسلوبيّة من خلال ثنائيّتي المعيار والانزياح، وتهدف هذه الثّنائيّة إلى إبراز المفارقة على صعيد الأسلوب بين بنية اللّغة الشّعريّة الفنيّة وبنية اللّغة النّثريّة النّفعيّة، حيث يمكن أن تعدّ القصيدة انزياحا قياسا إلى اللّغة العاديّة، ولذلك فإنّ تحقيق الشّعريّة لا يأتي إلاّ بعد ضبط المعيار ومعرفته، ولكنّ الصّعوبة تكمن في تغيّر المعيار من عصر إلى آخر، فما يمكن أن يكون معيارا في هذا العصر قد يصبح غير صالح في العصور المواليّة، ولذلك فعدم القبض على تحديد شعريّة الانزياح يرجع أحيانا إلى صعوبة تحديد معيار الانزياح في حدّ ذاته.

ولذلك فقد شكّك "ميخائيل ريفايتر" في جدوى المعيار نظرا لارتباطه بالمتلقّي الذي يحدّد العدول وفقا لما يعتقد أنّه معيار، ولذلك فقد اقترح "ريفايتر"بديلا لمفهوم المعيار اللّسانيّ في تحديده للظّواهر الأسلوبيّة المنزاحة أسماه بـ: (السّياق الأسلوبيّ)، والسّبب في ذلك –حسبه– هو أنّ تعريف الأسلوب الأدبيّ باعتباره انزياحا بالقياس إلى المعيار اللّسانيّ يثير صعوبات تطبيقيّة عندما يتعلّق الأمر بتحليل الأسلوب (....) لهذا [افترض] ضرورة استبدال مفهوم المعيار العام بمفهوم السّياق الأسلوبيّ ودراسة الإجراءات الأسلوبيّة بالقياس إلى هذا السّياق (Riffaterre, 1971, p. 64) .

ويمكن أن تكون وجهة النّظر هذه صحيحة، فالسّياق الأسلوبيّ هو الذي يسعفنا في التّوصّل إلى أسباب افتقار بعض الوحدات اللّسانيّة إلى أثرها الأسلوبيّ في موقع سياقيّ ما، بينما تتحوّل إلى إجراء أسلوبيّ في موقع آخر بفعل التّضاد النّاتج عن الانقطاع داخل السّياق، وبهذا الموقف سيكون بمقدور النّاقد التّخلّص من تلك الرّؤية الضيّقة التي تجعل لغة النّثر معيارا ولغة الشّعر انحرافا.

5-النّتائج ومناقشتها

لقد اختلف مفهوم الشّعرية في الدّرس النّقديّ الغربيّ الحديث، فهناك من حصرها في الشّعر فقط أمثال: "جون كوهين"و"رومان جاكبسون"، وهناك من دافع عن كونها نظريّة للأدب نحو "تودوروف"، فقد ركّز "كوهين" على جنس الشّعر وحده وهو يؤسّس لشعريّته الأسلوبيّة التي قامت على مفهوم الانزياح، ولذلك فقد وسمت شعريّته بعدم الشّموليّة لأجناس الأدب كلّه، لأنّه عالج الخطاب الشّعريّ وأهمل الخطاب النّثريّ.

كما أنّ نظريّته قد لا تصلح لفكّ الغموض الذي تزخر به لغة الشّعر السّرياليّ مثلا، لأنّ الغموض في هذا النّوع من الشعر لا يقتصر على الوحدات اللّسانيّة التي يشكّلها الانزياح بل يشمل النّص ككلّ، مثلها مثل أساليب السّهل الممتنع التي لها من الخصائص البعيدة عن الانزياح ما يؤهّلها لأن تكون من الأساليب الأدبيّة.

والحديث عن الوظيفة الشّعريّة وهيمنتها على الوظائف الأخرى في اللّغة حسب النّظام التّواصليّ الذي اقترحه "جاكبسون" جعلها مقتصرة على الخطاب الشّعريّ فقط، لذلك فقد اتّسمت شعريته بالتّجزيئيّة لأنّها اقتصرت على الشّعر دون النّثر، شأنه في ذلك شأن "كوهين" في نظريّة الانزياح، وهذا ما استدركه "تزفيطان تودوروف" عندما استخدم مصطلح الشّعريّة كشبه مرادف لـ: نظريّة الأدب، وقدّمها على أنّها بحث في القوانين الدّاخليّة للخطابات الأدبيّة شعريّة كانت أم نثريّة.

ولكن أُخذ على "تودوروف" اهتمامه بالبحث عن خصائص الخطاب الأدبيّ على حساب النّص، لأنّه لم يهتم بالنّص إلاّ من حيث كونه حاملا لهذه الخصائص، أي بدراسة ما هو متعال وغير متجسّد في نصّ بعينه، ولعلّ هذا ما جعل البعض يسم شعريّته بـ: التّجريديّة لا التّجريبيّة (عثماني، 1990، صفحة 64)، لأنّها لم تهتم بشعريّة الكُتّاب أو المدارس الأدبيّة مثلا، وإنّما ركزت على استكشاف قوانين الخطاب الأدبيّ وسماته المميّزة المستخلصة من تراكم النّصوص الأدبيّة عبر التاريخ.

خاتمة

لقد تباينت الإجراءات في مقاربة مفاهيم الشعرية عند رواد النقد الغربي الحديث، ولكنها اتفقت كلها تقريبا في فكرة أساسية، وهي البحث عن القوانين التي تحكم الخطاب الأدبي وتجعله متميزا عن باقي الخطابات الأخرى.

يعتبر"رومان جاكبسون" أوّل من أرسى دعائم الشّعريّة الغربيّة الحديثة على أسس لسانيّة وشكلانيّة موضوعيّة، وهو أوّل من وضع لبنات علم التّواصل وفق الأنظمة اللّسانيّة، وميّز بين الأجناس الأدبيّة وفق نظريّة القيمة المهيمنة، على أساس أنّ اللّغة الإنسانيّة لها وظيفة أساسيّة تتمثّل في التّواصل، وبالتّالي فإنّها تستند إلى ستّة عناصر وستّ وظائف أساسيّة تابعة لها.

أمّا الشّعريّة التي ناد بها "جون كوهين" فهي شعريّة أسلوبيّة تقوم على مفهوم الانزياح، انطلاقا من مبدأ التعارض القائم بين اللغة الشعرية واللغة النثرية، مركزًا على الشّعر فقط، ولذلك فقد اكتفى بتعريف الشّعرية في كتابه المعروف بـ: (النّظريّة الشّعريّة) كعلم موضوعه الشّعر، ولذلك فقد وسمت شعريّته بالتّجزيئيّة وعدم الشّموليّة لأجناس الأدب كلّه، لأنّه عالج الخطاب الشّعريّ وأهمل الخطاب النّثريّ.

أمّا "تزفيطان تودوروف" فقد استخدم مصطلح الشّعريّة كشبه مرادف لنظريّة الأدب، وقدّمها على أنّها بحث في القوانين الدّاخليّة للخطابات الأدبيّة، وهي تقوم أساسا على مفهوم الخطاب الأدبيّ وتشتغل على خصائصه، لذلك فهو لم يهتمّ بالأثر الأدبيّ في ذاته وإنّما بتجلّيه الذي يحمل خصائص هذا الأدب، بتعبير آخر، ليس العمل الأدبيّ في حدّ ذاته هو موضوع الشّعريّة، بل هي خصائص هذا الخطاب النّوعيّ الذي هو الخطاب الأدبيّ، وكلّ عمل عندئذ لا يعتبر إلاّ تجليّا لبنية محدّدة وعامّة، ليس العمل إلّا إنجازا من إنجازاتها الممكنة، ولأجل ذلك فإنّ هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقيّ بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجرّدة التي تصنع فرادة الحدث الأدبيّ.

قائمة المراجع العربية

جاكبسون رومان .(1988) .*قضايا الشعرية*)الإصدار 1) .(محمد الولي وحنون مبارك، المترجمون) المغرب :دار توبقال.

كوهين جون .(1986) . *بنية اللغة الشعرية* (الإصدار 1) .(الولي محمد والعمري محمد، المترجمون) المغرب :دار توبقال.

كنوني محمد العياشي. (2010). *شعرية القصيدة العربية المعاصرة (دراسة أسلوبية)* (الإصدار 1). الأردن: عالم الكتاب الحديث.

ناظم حسن. (1994). *مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم)* (الإصدار 1). بيروت: المركز الثقافي العربي.

عثماني ميلود. (1990). *شعرية تودوروف* (الإصدار 1). المغرب: منشورات عيون الدار البيضاء.

تاوريريت بشير .(2010) .*الشعرية والحداثة بين أفق النقد الأدبي وأفق النظرية الشعرية* .سوريا :دار رسلان للطباعة والنشر.

تودوروف تزفيطان. (1990). *الشعرية* (الإصدار 2). (المبخوت شكري، و بن سلامة رجاء، المترجمون) المغرب: دار توبقال.

تودوروف تزفيطان وآخرون .(1982) .*نظرية المنهج الشكل (نصوص الشكلانيين الروس)* (الإصدار 1) .(ابراهيم الخطيب، المترجمون) بيروت :مؤسسة الأبحاث العربية.

قائمة المراجع الأجنبية

Riffaterre, M. (1971). *Essais de stylistique structurale.* Paris: Flammartion.

Todorov, T., & Oswald, D. (1972). *Dictionaires encyclopédique des sciences du language.* Paris: Seuil.